الزهرة رميج

عندما يومض البرق

قصص قصيرة جدا



الزّهـرة رميج

عِندمَا يُومِض البَرِق

قصص قصيرة جدًا

الكتـــــاب : عندما يومض البرق
المؤلـــــفة : الزهرة رميج
النـــاشـــر : المـــؤلفة
الغـــــلاف : الفنان عبد الله الحريري
الطبعـــــة : الأولى 1429-2008

الطبـــــع : مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء
الإيـــــداع : القانوني رقم 2008 MO 0555
ردمـــــك : 978-9954-8939-0-3

إضـــــاءة

يومض البرق،

فيشق نوره جليد السواد .

عندئذ، يتكشف عمق الظلام .

يدق الرعد طبول الحرب،

فتتجمع جحافل الأمطار .

أمنية

جلست تتأمل قطعة الحجارة الملساء في يدها. ترفعها إلى أعلى مستوى ثم تقذف بها إلى الأرض.

ترتطم الحجارة دون أن تصدر صوتا. غبطت الحجارة. أصبح التشبه بها حلما يسيطر عليها. سعت لتحقيقه بكل الطرق، إذ لم تعد تحتمل هشاشة الفراشة بداخلها.

استيقظت ذات صباح ، لتجد الحلم قد تحقق.من شدة الفرح أرادت أن تعانق نفسها. بحثت عنها في كل مكان، فلم تجدها.

علاقة

عَاشَرْتُها سنوات طويلة. رأيتها تكبر يوما بعد يوم. ألقي عليها تحية الصباح وتحية المساء. تستقبل تحياتي بابتسامتها المشرقة. أحس بها تنتظر إطلالتي وتسعد بها سعادتي برؤيتها. حتى عندما أكون في أسوأ حالاتي ، أجد أساريري المنكمشة تتفتح تفتح ورودها اليانعة.

غبتُ كعادتي، خلال العطلة الصيفية. وعندما عدت، صعقتني المفاجأة. غابت شجيرة الورد التي كانت تزين مدخل معرض السيارات ، ودكت جذورها تحت الإسمنت. منذ ذلك اليوم ، وأنا أقرأ على روحها الفاتحة صباح مساء. أعرف أن رفاتها تتحرك كلما مررت بها ، مثلما تتحرك دواخلي تماما.

حمـــام

خرج عازما على اقتناص حمامة يلذذ بها حساء هذه الليلة.

لاتمر ليلة السبت دون أن يستمتع بلذة الحمام الذي يعشقه...

رآها في كامل نضجها بريشها الأبيض الناعم قرب البرج.

كانت توجه الكاميرا نحو سرب الحمام المحلق في الفضاء.

وجه آلته نحو مفاتنها. صاح من الدهشة :

"يا إلهي ! ... حمامة تعشق الحمام !"

لم يقتنص الحمامة. اكتشف روح الحمام المحلق في السماء !...

المـــرآة

تُخرِجُ كل صباح المرآة من تحت المخدة. تطل على الطفلة بداخلها. تداعبها. تمسد وجهها المتغضن فيلين تحت أصابعها وتتمدد تجاعيده بحرارة الذكريات...

تمسح الدمعة العالقة برموشها. في أعماق المرآة، تتراءى لها تلك الشابة اليافعة تطارد الغزلان في الغابة الخضراء الشاسعة، فتقفز من سريرها لتلتحق بها.

كل يوم، تخرج المرآة من تحت المخدة.

كل يوم، تهديها المرآة يوما آخرا...

حنين

في الصباح، وهي ما بين النوم واليقظة، دغدغ أذنيها همس رقيق... ارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة. ظلت تنتظر تلك القبلة الصباحية الدافئة التي سَتُطْبَعُ على جبينها والذراعين اللتين ستضمانها والأغنية التي ستعبث بجفنيها ليتفتحا على ألق الحضور الباذخ.

كانت السعادة تغمرها وهي تنتظر بشوق، عندما سمعت صوت الغياب ينهرها بكل قسوة.

الأرجوحة

بالليـل، وخـاصة عنـدما يكـون مخمـورا، يـرفـعـهـا إلى السمـاء السابعة.

بالنهار يهوي بها إلى الأرض السابعة.

يتعاقب الليل والنهار...

يتعاقب الرفع والخفض...

يتعاقب التقديس والتحقير...

تستمر الأرجوحة في الارتفاع والانخفاض...

تستمر الحيرة في الدوار.

أيهما تصدق؟ وحي الليل الجميل أم محو النهار الجارح؟

غثيـــان

عكس اتجاه الـقاطرة كنـت أجلس. لا أرى الأشيـاء إلا بعد أن يـكـون الآخـرون قد تأملوها وهي تلوح أمامهم، تقـترب منهم ، تصبح محاذية لهم.

تتعـاقب (أمـامي؟ خلفي ؟) أكـوام حصـاد صغيرة... نـخلة باسـقة... أشواك تئن تحت وطـأة الشمس الحارقة... مساحات قاحلة... شجيرات مورقة لا تـكبر أبدا...

ابـتسمت في داخلي بمرارة.

ألا يسيرِ بي القطار في اتجاه النهايات؟

هل هذا المكان الذي اخترته (هل اخترتـه حقا ؟) يـتيح لي رؤيـة المستقبل واستـشـرافه ؟ وهذه الأشياء التي تمـر عبري ، أليست مجـرد أشيـاء مركـونـة في الخلـف؟ لا شيء أمامي سـوى الخلف. الخلف فقط. الخلف الذي يصيبني بالدوار... بالغثيان... بالقيء...

عفوا إن لطخت عيونـكم و مسامعكم بمخلفات أحشائي.

تشـــابه

أحبها. أحبته.

كان جبانا. كانت شجاعة.

قال: سامحيني. لقد أجرمت في حقك.

قالت: لا داعي لطلبك، لقد أجرمنا في حق بعضنا.

قال: كيف، وأنا الشيطان وأنت الملاك ؟

قالت: ما أحببتك إلا لأن في شيئا منك... شيئا من شيطانك يسكنني !... لا تعتذر إذن. فأنا شبيهتك وشريكتك في الجريمة.

رؤى

اِلْتَفَّتْ زميلاتها حولها لرؤية الصورة موضع الاهتمام.

انبهرن بالملامح المضيئة والجسد الممتلئ شبه العاري تحت سماء باريس الصافية.

قالت الأولى: من قال إن الشباب لن يعود ؟ ها قد عدت إلى الوراء عشرين سنة !

قالت الثانية: ما أحلى الإنجاب مبكرا !

قالت الثالثة: يا للزوج المحظوظ ! عليك أن تطالبيه بمهر جديد!

قالت الرابعة: ما أصلح هذا الجسد لأفلام البرنو !

دعــوة

قَـدَّمَ الجـرح كلا منهما للآخر... استضافهمـا في قصــره ... دعاهمـا إلى نـزهة في حـديقة النسيان الرائعة... منحهما أحسن غـرفة في القصر. دغـدغ حواسهما عطـر النسيـان... أبحرا في أعماق الرغبة المعطلة...

مـــا إن خـــرجا إلى الشاطئ، واستلقيا على رماله الحارقة، حتى سهـمت عيونـهما في أفقين مختلفين وقد تحجرت في عين كل منها دمعـة !

عبور

الجو هذه الأيام ، شديد التقلب. قلت لابنتي:

- البسي معطفك الصوفي ، فالبرد قارس.

أمام إصرارها على الخروج بملابسها الخفيفة، صحت فيها غاضبة:

- هل تفضلين إبراز مفاتنك على حساب صحتك ؟

ردت علي بلهجة صادمة:

- إذا كنت أنت تشعرين بالبرد ، هل ينبغي على العالم كله أن يشعر به ؟

انتصبت، في لمح البصر، صورة مماثلة أمام عينيّ. صورة انبعثت من أعماق الذاكرة. حوار بيني وبين أمي التي كانت تعاني من آلام المفاصل.

أخبرتني الصورة بما كنت أجهله... بما كنت أتجاهله... بما كنت أصرّ على تجاهله ! ...

الزمـــن

رحبت المضيفة ترحيبا حارا بابنة صديقتها الحميمة.

جلستا في الشرفة تدردشان وهما تشربان الشاي. سألتها عن طفلها الصغير:

- كم عمره الآن ؟

- عشر سنوات.

- عشر سنوات ؟ مضت إذن عشر سنوات على طلاقك ؟! ياه ! ...

كم يمر الزمن سريعا ! حمدا لله أننا لا نحس به !

ردت الضيفة الشابة و هي تنظر إليها باستغراب:

- بل علينا أن نحس به !

العمامة

عندما كنت ظلا – أو هكذا خُيِّلَ إليه – كان صديقي يضعني فوق رأسه تاجا. يفرش أرضي وردا. يجعل من لقائي به عيدا...

عندما غمرت الشمس ظلي، توارى عن أفقي صديقي. وكلما صادفته في طريقي، أبصرت شيخا يضرب في الصحراء، بحثا عن ظلال يبرز سوادها نور عمامته البيضاء.

أجيــال

سـمـع ، وهـو يـقترب مـن شـقـتـه، صـراخـا. أسـرع يـفتح الباب. الصــوت قادم من غـرفة ابنته. - ما الأمر ؟ صاح في زوجتـه.

- لاشيء ! أجابت و هي تضع يدها تحت المخدة.

اقترب مـن السـريـر وأدخـل بـدوره ، يـده تحت المخدة. أخـرج صورة. بدت ابنته إلى جانب شاب وسيم في حديقة عمومية ، يلف كتفيها شبه العاريتين معانقا.

- ما هذا ؟ ابنتي أنا في هذا الوضع ؟

- هذا ما كنت أؤنبها عليه. كيف تسمح لنفسها بأخذ صُور مع شاب غريب لا تربطها به أية علاقة ؟

هـرعت الـفتـاة إلى غـرفـة والـديـهـا. عـادت تحمـل ألْـبوم الصـور. فتحته أمامهما قائلة:

- و هــذه الصـور المحتشمة ، هل التقطـت لكمـا بعد الخطـوبـة أم بعد الزواج ؟

رفعت عينيها عن الألبوم. لا أحد في الغرفة !

هذا الوجه !

كالعادة، بدأت تتصفح العناوين البارزة للجريدة قبل أن تنتقل إلى قراءتها. تسمرت عيناها فوق صورة. هذا الوجه !... هذا الوجه الذي ! ...

أخذت تبحث في قسماته عن إشارة... عن شعاع يحملها... يقطع بها مسافات الماضي السحيق... لكن ، لم يطالعها سوى وجه تمثال قد من جليد، تتوسطه عينان زجاجيتان أسدل الموت عليهما ستائره السوداء.

توقعت حدوث الزلزال ، قصف الرعود ، هطول الأمطار الطوفانية. لكن شيئا من ذلك ما حدث ! ظل الجو ثابتا في حياده البليد. ظلت أعماقها ساكنة كبركة ماء راكدة !...

أخيرا !... لملم البركان نزيفه!...

أخيرا !... أخمدت النار لهيبها!...

أخيرا !...أمسك الزمن بزمام هذا الفرس الذي ظل جامحا أمدا طويلا!...

نـافذة الإنـقاذ

صعدت الحافلة. جلست في المكان الوحيد الشاغر جنب شاب وسيم يميل برأسه إلى النافذة.

قرأت الحروف المقلوبة المرتسمة فوق الزجاج: "نـافذة الإنقاذ". فتحـت الجـريدة. أحسـست بجـارها يمـد رأسـه ليشـاركهـا القراءة. ابتعدت قليلا. تبعها رأسه. تبعها جسده... أحست بأنفاسه تلفح خدها الأيمن.

قلبت الصفحة. تابع الاقتراب. تابعـت الابتعـاد. وضعت قدمـها اليـسرى في الممـر. نصـف جسـدها يـنزلـق خـارج الكرسي. أحست بأنفاس تلفح خدها الأيسر. رأس يمتد لقراءة الجريدة. رؤوس تمتد. ترتفع حرارة الأنفاس موقظة الحمم البركانية. تنتفض الجريدة. تبعثر في الهواء فقراتها... جملها... كلماتها... حروفها... تصبح النعمة نقمة. الوجود عدما. المعنى لامعنى. تتطلع إلى نافذة الإنقاذ. عجبا! إنها محكمة الإغلاق!...

لعبة الألم

عندما أشعر بالألم ... أي ألم... ألم الروح... ألم الجسد ... ألجأ إلى لعبة لا أدري أين ومتى تعلمتها.

لعبة أصبحت أدمن عليها. أكررها بعدد حبات الرمال. أدخل دبوسا حادا في باطن كفي. أضغط عليه بقبضة يدي. أغمض عيني. أركز على نقطة اختراق الدبوس لباطن كفي. أضغط و أضغـط... و أضغـط إلى أن يتـلاشـى إحسـاسي بالألم. إلى أن يتلاشى إحساسي بالجسد نفسه ... بالزمان ... بالمكان... إلى أن أتحـــول إلى رأس دبـــوس... مجـرد رأس دبـــوس لا أدري في أي فضاء يهيم...

هل أغرتك هذه اللعبة ؟ مارسها، عزيزي القارئ و سترى !

هاذا

ما إن ألقى المدير نظرة على الورقة حتى صاح فيه:

- أبعد هذا العمر لا تريد أن تتعلم ؟ لا أفهم ارتكابك الدائم لهذا الخطأ !

أحس بالدوار. تجسدت أمامه ملامح فقيه القرية أيام دراسته بالكتّاب.

-ألم أقل لك بأن كلمة "هذا" لا يفصل بين حرفيها ألف المد؟

- ولكننا ، نُعماسْ ، نمد الهاء أثناء النطق ! ولا يعقل أن...

- أتجادلني أيها الصعلوك؟ أتريد أن تعلمني ؟

لم ينس - ولن ينسى أبدا - ذلك اليوم المشؤوم. ذلك اليوم الممطر القارس الذي جلده فيه الفقيه بقسوة الوحوش وشراستها. لم ينس رد فعل والده عندما ولولت أمه وقد جيء به محمولا على الأكتاف: "خَلِّي لَحْمَارْ يَتْعَلَّمْ !"

منذ ذلك اليوم، تعاهدت يده و عقله على أن لا يخضعا أبدا لإرادته.

الكذب

وهما عائدان من حديقة الألعاب، قالت الأم الشابة لطفلها مُذكِّرة إياه:

- لا تنس ما أوصيتك به !... إياك أن تنطق بأية كلمة أمام أبيك!...

ما إن أصبحا أمام محل اللعب حتى توقف مشيرا بأصبعه.

- أريد هذا المسدس !

أمام رفضها، صاح محتجا:

- عندما أخرج مع أبي يشتري لي كل ما أطلبه منه ! ...

دخل البيت يحمل المسدس. وجّهه نحو والده. بّام !.. بّامْ !... بّامْ !...

سقط الأب.

وجهه نحو الأم. بّام !... بّام !... بّام !...

سقطت الأم.

صاحا فرحا. أقبلا عليه يعانقانه. تخلص منهما بعنف قائلا:

- هل كل الكبار يكذبون ؟

جـــواب

يُلِحُّ عليّ في كل مرة، نفس السؤال ولا أجد له جوابا.

ليس بيني و بينها أية عداوة أو كراهية. غير أني لم أشعر يوما ، وأنا أصافحها أو أقبلها ، بتلك الحرارة التي نشعر بها عادة ، ونحن نصافح أو نقبل الناس الذين تربطنا بهم ألفة ما.

هي مثلنا تماما ، من لحم ودم يجري حارا في عروقها. فما الذي يجعل حرارتها لا تصل إلى الآخرين؟

حل بها مصاب جلل، فرحت أواسيها. ضممتها إلى صدري ضمة من اكتوى بنفس النار. أحسست أني أضم قطعة من خشب.

عندئذ فقط ، أدركت الجواب.

عين الكاميرا

كانت الصحفية تستجوبه، والكاميرا تنتقل عبر أركان البيت القديم والأثاث المتآكل. تحدث عن شراسة حرب الهند - الصينية، عن بطولته، عن إعاقته، عن عقوق فرنسا...

عادت الكاميرا تركز على جسده النحيل المكوم في الكرسي المتحرك، وعينيه الغائرتين. انتقلت إلى المرأة الهرمة التي تجلس إلى جانبه. سألتها الصحفية:

- لا شك أنك تحبينه حبا عظيما يمنحك القدرة على السهر على راحته طيلة هذا الزمن وبكل هذا التفاني.

أجابت بعفوية مدهشة:

- أبدا. لم أحبه قط !

انتقلت الكاميرا تتفحص صورة معتمة في إطار خشبي متآكل. جندي شاب مفتول العضلات، حاد النظرات، بجانبه طفلة جميلة تنظر إلى الأرض وهي تمسك بذيل فستانها الأبيض الطويل.

واجهة

كل الطلبة منهمكون في الإجابة عن أسئلة الامتحان ما عداها. آخرون يحاولون... لكنها أكثرهم إصرارا.

تحرك رأسها في كل اتجاه... تهمس إلى مجاوريها، فينهرها الأستاذ :

- إذا كان غطاء رأسك يحول دون سماعك لصوتك، فإن أذنيّ تسمعان دبيب النمل !

الوقت يمر وهي على حالها، تتربص بإجابات الآخرين تربص الوحش بفريسته.

لم يبق الآن، سوى بعض الطلبة المتناثرين في القاعة. دائرة فارغة تحيط بها... لا أمل في تلك اللحظة الأخيرة التي يختلط فيها الحابل بالنابل !...

أخيرا، سلمت الأستاذ ورقة تحريرها. ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة وهو يقرأ ما كتبته أعلى الصفحة بخط عريض أحمر:

"باسم الله الرحمن الرحيم.عليه توكلت وهو المعين".

إعجـــاب

أحس بضميره يعذبه.

"لماذا قمتُ بذلك الفعل المشين؟ لماذا خالفت عقلي وانسقت وراء رغبتي؟ لماذا تحولت في لحظة خاطفة، من سيد إلى عبد ؟"

أحس تجاه نفسه باحتقـار رهيب.

فجـأةً ، شعر وكأن غشاوة تنزاح عن عينيه، فإذا بالزهو يملؤه وبقامته المنكمشة تتمدد بحرارة الإعجاب.

وجـد نفسه يـردد حكمـة لم يسمعها من قبـل:

"أنــا معـجـب بنفسي لأني قادر على احتقارها"!

صـــدى

أحست بالإحباط. هل كانت تنحت بأظافرها في الصخر؟ إذا كـــان الحـب والصـدق لا يستـطيـعـــان فعـــل شـيء، فمـن ذا الذي يستطيع ؟

خرجت لا ترى. لا تسمع. لا تعي.

اعترض طريقهـا. قبل أن ينفجر بركانها، مد إليها ورقة قائلا:

"قصيدة سهرت على كتابتها البارحة."

التقطتها بسرعة، بلهفة، بدهشة:

جميل ! رائع ! أمكـن هذا ؟

ضمت التلميذ الكسول إلى صدرها. انقشع الغيم. تحلقت تغرد حولهما الطيور.

اختــلاف

قالت الطفلة الصغيرة وهي تقهقه وتضغط بقوة على يد أمها:

- ماما ! انظري !

- ماذا ؟ تساءلت الأم في انزعاج.

- ذلك الرجل و المرأة !

- ما لهما ؟

- عجوزان و يسيران متشابكي الأيدي كالعشاق !

أطلقت الأم تنهيدة عميقة ، وهي تستدير لتلاحقهما بنظرة ساهمة... جرت ابنتها بعنف قائلة :

- اسرعي ! يكاد أبوك يغيب عن أنظارنا !

رجع الصدى

أحبها رجال.

عشقت كل الرجال.

جرى بها العمر يسابق الريح.

امتد بها الطريق. لفت جسدها الواهن بين أجنحتها الملتهبة. تتقدم خطواتها بصعوبة داخل الرمال الحارقة.

لا أثر للحياة في هذه الصحراء القاحلة. لا طيف في الأفق. صاحت بأعلى صوتها. لا وقع سوى رجع الصدى.

جنــة

في قمة الجبلَ كان جالسا جلسة الحكماء.

في أسفل الجبل كانت تقفز مع الفراشات بين الأزهار.

التقت عيناهما فجأة. سرى تيار كهربائي بينهما.

رأى قلبه المتضخم يستعيد نبضا منسيا.

رأت رأسها يكبر بشكل غريب لم تألفه من قبل.

رآها تصعد الجبل بثقة الحسناء المجربة.

رأته ينزل الجبل بقامته الفارهة و وجهه المتألق.

التقيا وسط الطريق. امتطيا البساط السحري الذي نشر نفسه تحت قدميهما. أدخلهما البساط جنة لم يدخلاها من قبل. مكثا زمنا لم يستطيعا قياسه. كل القياسات كانت معطلة.

خرجا من الجنة ، فإذا به في جلسته المعتادة فوق الجبل ، وإذا بها تقفز مع الفراشات بين الأزهار!

القيدومة

كانت تلهب غيرة الطلبة بذكائها واجتهادها وتحرج الأساتذة بأسئلتها الفلسفية العميقة. وكان اقتسامها غرفة الحي الجامعي مع "قيدومة" الكلية مثار استغراب و تنكيت.

خرجت "القيدوم" بعدما استنفدت سنوات التكرار. تخرجت هي بتفوق. لكن الوزارة أغلقت أبواب الفلسفة لحماية المجتمع من الشك والشرك...

لم تنجب الكتب التي حلمت بها بل أولادا ضاقت بهم الشقة الصغيرة، فسعت إلى اكتراء شقة أوسع. حدد لها السمسار موعدا مع صاحب العمارة. دخلت المكتب الفخم في تهيب. نظرت إلى المرأة الأنيقة التي تدخن السيجارة الطويلة فأحست بالارتباك. تسمرت في مكانها إذ سمعتها تقول:

"أهلا وسهلا بطالبتنا المتفوقة !..."

نظرت إليها باستغراب: "من ؟"

كادت كلمة "القيدومة" أن تنزلق خارج حنجرتها لولا أن أدركتها بسرعة البرق !

خيانـــة

تذكـرت في الصبـاح ، أن قصيدة أيقظتها ليلا ، وأنهـا بقيت ترددها في الظلام معدلة صورها ومقومة اعوجاجها إلى أن تجلت في كامل بهائها. عندئذ، تركتها في صفحة الذاكرة ريثما تنقلها في الغد، إلى صفحة الدفتر.

حاولت في الصباح، استرجاع القصيدة، لكن الذاكرة تنكرت لها : "متى ائتمنتني على قصيدتك؟"

توسلت إليها بكل الطرق. لكن عبثا ! أصرت الذاكرة على الإنـكار. صعدت الـدموع إلى عينيها. ضاعت القصيدة الحلم التي لن يمنّ بها الزمن ثانية! تساءلت بمرارة :

"من يصدق الذاكرة ؟"

بعد

بعيدة ... بعيدة كانت !

هالة النور تحيط بوجهها. كل الأعين مشدودة إليها. كل النساء يتمنين أن يتوحدن بها. كل الرجال يتمنون أن يذوبوا في نسغها. فينوس في صمتها وجمالها الباهر ! نجمة تستوطن السماء السابعة !...

فجأة، ارتفع صوتها يطلب من سائق الحافلة أن يتوقف. انطلق سيلها الأجش... كل الأعين تحاصر جثتها المتعفنة.

النجمة مطفأة، سقطت من السماء السابعة لتستوطن الأرض السابعة !...

بعيدة كانت.... بعيدة صارت !

إغـــراء

طال إلحاحه. يقف كل ليلة، تحت شرفتها. يعزف على قيثارته ألحان الحب المقدس. يصلي في اتجاه قبلتها.

أخيرا، استطاعت أنغامه أن تليّن صخرها وأن تحول صلابته إلى فتات تتناثر تحت قدميه.

لملم الفتـات. حملـه بين يديـه متخطيا العتبة الفاصلة، مغمورا بضوء القمر...

أصبـح يتـمدد كـل ليلة، إلى جانبهـا وهو يعـزف على الآلـة الصدئة ألحان الحب المدنس.

أصبح يصلي في اتجاه قبلة غير قبلتها. تمرد فتاتها. تجمع من جديد. صار صخرا صلدا. حمل الصخر نفسه بين يديه مجتازا العتبة الفاصلة، متلفعا بظلام الليل الدامس...

القنـــاع

تكاد تطير من شدة الفرح. يا لها من صدفة غريبة !... أهي في الحلـــم أم في اليقظـــة ؟ هو بلحمـــه وعظمـــه أمامها !... نموذجها الرائع !... تلتهم كتاباته التهاما !...

أيـعـقـل أن يـكـون الجالس أمـامـهـا الآن، هـو نـفـسـه ذلك الـكـاتب المبجل الذي حلمت عمرا، بلقائه ؟ أيعقل أن يحتسي قهوته مثلها ويتحدث إليها كصديق قديم؟

يستمر حديثه... تتضاءل سعادتها ... يزداد شعورها بالمغص ...

يسـقـط القنـاع، فتنـهـض مسـرعـة، لـتـقـيء إعـجـابـهـا في المرحاض وتنصرف !

Liquidation totale

يحكى في جديد الزمان و آتي العصر و الأوان، أن بلدا استيقظ ذات صباح، فنظر إلى وجهه في المرآة. بدا له وجهه قبيحا... منفرا... بل مقززا. فتح فمه ليصفع هذا الوجه بقول الشاعر:

"قبح من وجه وقبح حامله".

لكنه فوجئ بسيل جارف من القيء الأسود يندفع من أعماقه بقوة اندفاع النفط لحظة اكتشافه.

انتشرت في الجو رائحة العفن والطعام الفاسد. سدت عليه أنفاسه، فأعلن إفلاسه.

علق في أعالي السماوات وأعالي البحار، وفي أقصى الشمال وأقصى الجنوب، وفي أقصى الشرق وأقصى الغرب، و في أقصى اليسار وأقصى اليمين، لا فتات طويلة عريضة كتب عليها بكل الألوان و الأشكال:

"liquidation totale".

حربائية

تهالكت على المقعد الخلفي للتاكسي.

أزاحت الكوفية الفلسطينية عن عنقها قليلا. مسحت بذيلها العرق المتصبب من وجهها. بدأ الحديث عن فلسطين... عن الحصار... عن الحقد الصهيوني...

هو، يتكلم بحماس. نبرته تبدو صادقة. نظرات عينيه عبر المرآة، توحي بالاطمئنان.

هي، صوتها مبحوح. دمها لا يزال ساخنا. عواطفها متأججة !...

فجأة، أوقف السيارة. استدار نحوها قائلا :

"أستحلفك بالله أن تجلسي بجانبي. لا أريد أن نتحاور عن بعد. إنك امرأة مختلفة !"

انحنى على يدها يرفعها بخشوع إلى شفتيه كما المريد مع شيخه. سحبت يدها بسرعة قائلة : "أستغفر الله !..."

انطلقت السيارة من جديد. تغيرت نبرته. تغيرت لغته. انتقل الحديث من الشؤون العامة إلى الشؤون الخاصة. صفعته بورقة نقدية قائلة : "قف مكانك !"

الأسطورة الذاتية

قالوا : أنت كائن خرافي !... أنت أعمى. لا ترى آثار خطوك على الأرض.

قالوا... وقالوا.. .وقالوا...

لكن أذنيه قررتا الإضراب عن الإنصات. خبأ الحلم بين ضلوعه حتى لا يصادروه منه. آنئذ، قررت "أسطورته الذاتية" احتضانه.

وضعت يدها اليمنى على كتفيه. وباليد اليسرى، رسمت له طريقا تتبعه خطاه، ثم صنعت له حصانا طائرا امتطى صهوته وحلق بعيدا...

سلطة

أخرجت كراستها. فتحت صفحة بيضاء. أخذت القلم لتكتب قصتهما الغريبة. قصة تزخر بروعة النثر وسحر الشعر.

لديها ما يكفي من الجمال والجنون لتكتب قصة آسرة.

لكن، ما إن فتحت الصفحة البيضاء ودعت القلم لولوج جسدها البض متسلحا بالرغبة المتأججة، حتى فوجئت به يتقلص بين يديها ويتحول إلى مجرد هديبة تتلاعب بها الرياح.

إنجاب

أنجب عشرة أطفال. لا أحد منهم أصبح مواطنا صالحا كما كان يحلم وهو يكرس حياته للعمل الحزبي. سأله صديق عمره وقد رآه مهموما طوال الوقت، بما آل إليه أولاده :

- ألم تفكر في سبب هذه الآفة ؟

أجابه بنبرة حزينة:

- بلى، فكرت وعرفت.

- ماذا عرفت؟

- لقد أنجبتهم جميعا وأنا فاقد للذاكرة.

شاعر ناشئ

طبق نصيحة الشاعر القديم. نسي ذلك الكم الهائل من القصائد التي حفظها عن ظهر قلب. امتنع عن قراءة الشعر زمنا طويلا. ثم بدأ يكتب.

قبل أن يدفع بديوانه إلى المطبعة، راوده الحنين إلى قراءة الشعر. اشترى آخر ما صدر لأحد كبار الشعراء. أصيب بالرعب. هذه النصوص تشبه نصوصه ! ماذا سيقول النقاد عنه ؟ "سرقة بليدة لشاعر ناشئ من شاعر عظيم !" سيُشرّحون القصائد. هذه الفكرة... هذه الصورة... هذه الجملة... هذا البياض... التهمة ثابتة قطعا !

فكر طويلا. هل يستطيع الوقوف في وجه فطاحل النقاد؟ و من ذا الذي يصدق نكرة على خريطة الشعر؟

اتجه نحو المدفأة. صفف قطع الخشب فوق بعضها البعض بعناية. وضع مخطوط الديوان فوقها. ألقى عليه نظرة دامعة، قبل أن يصب الغاز ويشعل النار.

النـار و الخشـب

ظل الخشب يطارد النار، يغازلها، ينظم في حبها الأشعار الملتهبة. لكن النار لم تستسلم لإغراءاته. مع إصراره العجيب، أحبته وقد تيقنت من صدقه. غير أنها خشيت عليه وعلى نفسها من الهلاك. إذ ما الذي يحدث عندما تلتقي النار بالخشب؟ بالتأكيد، ستلتهمه كما سيحولها إلى رماد. لذا، تظاهرت باللامبالاة. لكنها أمام إلحاحه، اعترفت له قائلة:

"أنا أيضا أحبك. لكنني أخشى أن يكون هذا الحب مدمرا لنا معا."

قهقه الخشب عاليا ثم قال :

"و متى كانت نار الحب مدمرة ؟"

استغل لحظة ضعفها و طوقها بذراعيه. أغمضت عينيها منتشية برائحة أنفاسه. فتحتهما، فإذا بالخشب عودا طريا اخضرت أوراقه!

لم تلتهمه التهاما. و لم يحولها رمادا.

الفراشة

نظرت إلى صفحة وجهه المتربة ونتوءاته الصخرية.

تساءلت بينها وبين نفسها:

"أأهرب من لهيب الرمل إلى حدة الصخر؟"

قرأ الصخر هواجسها. فتح صدره، فإذا شلال ماء زلال يتدفق بين أحضان الغابة الخضراء... وإذا الأزهار تتمايل على إيقاعات أنغامه السحرية!

إغراء النسيم المنعش ورحيق الأزهار اليانعة لا يقاوم!

أسرعت الفراشة بالدخول، قبل أن يغلق الصخر باب صدره!...

جرحـــان

قال الجرح الأول للجرح الثاني:

- أرى بابك لا يزال مشرعا للريح ! ألم تحاول إغلاقه ؟

- بلى. حاولت، ولكني لم أعثر بعد، على المفتاح المناسب.

- ألهذا أرى عضلاتك تتقلص ولونك يزرق؟

- نعم، بالتأكيد. وأنت؟ أرى بابك أيضا لا يزال مشرعا للريح! ألم تحاول إغلاقه ؟

- بلى. حاولت، ولكني لم أعثر بعد، على المفتاح المناسب.

- ألهذا أرى عضلاتك تتقلص ولونك يزرق ؟

- نعم، بالتأكيد.

فكر الجرح الأول مليا، ثم قال:

- لماذا لا نتعاون لإغلاقهما معا ؟

- وكيف؟

- يضع كل منا بابه على باب الآخر.

دنا الجرح من الجرح. ألصق كل منهما بابه بباب الآخر. صار الجرح واحدا. توقفت الريح عن التسلل. تمددت عضلات الجرحين، فاستعادا لون بشرتهما الوردي.

بطنـــــان

جمعتهمـا مائدة واحـــدة. اكتشفتا أن تاريخـا محددا غير مصير كل واحدة منهما إلى الاتجاه المعاكس.

قبل أربعين عاما، كان الجوع يستوطن الأولى.

قبل أربعين عاما، كان الشبع يستوطن الثانية.

ثم انقلبت الآية.

ما إن مُدّ السماط، حتى انقضت البطن الأولى تلتهم وتخزن إلى أن تحولت إلى بالونة تكاد تنفجر. أما الثانية، فقد كانت بالكاد تلامس الطعام، فظل حالها على ما هو عليه من الضمور.

قالت الثانية للأولى مستغربة:

- أما استطعـت نسيان الجـوع رغم امتلائك طيلة هذه السنيين؟

ردت الأولى باستغراب أكبر:

- وأنــت، أمـا استطعـت نسيــان الشبــع رغـم خــوائك طيـلة هـذه السنين؟

امرأتـــان

درستا معا.

كانت الأولى تقضي معظم وقتها في المكتبات.

كانت الثانية تقضي معظم وقتها أمام المرآة.

اكتسبت الأولى قيما تمكنت من وجدانها.

اكتسبت الثانية جمالا تمكن من شد الأنظار إليها.

وهبت الأولى حياتها للمبادئ بعيدا عن الشهرة.

وهبت الثانية نفسها لأحدهم، فأصبحت تجالس المشاهير.

ظلت الأولى وراء الستار.

اعتلت الثانية الخشبة تغمرها الأنوار!

كـــأنـهـم

كـانوا يسيرون بسـرعة. لا أحد يلتفـت إلى الآخـر. كأنـهـم مـدفوعـون بـريـاح خـرساء... كـأن عيـونهـم عيـون تماثيـل رومانية... كأنهـم جـزر متزاحمـة...

فجأة، ارتفع صياح من مكان ما.

تراجعت الأقدام. أبطأت الخطـى السير متتبعة مصدر الصوت. الشارع كله يتراجع... العيون البيضاء تسترجع ألوانها ملتقية عند صمت السؤال.

لا أثر لمصدر الصوت! لا أثر للصـوت نفسه!

يـعـاودون السير بسـرعة. لا أحـد يلتفت إلى الآخـر. كـأنهـم مـــدفوعون بريـاح خرساء... كـأن عيـونهم عيـون تماثيـل رومانية... كأنهم...

الفـــأر

كان الطفل يتأمل ملامح صديق والده و هو ينصت إلى كلمات التبجيل التي تتعاقب على المنصة. علامات استفهام متوترة تتزاحم في رأسه الصغير. نهض والده ليدلي بشهادته أيضا. زينت وجه الصديق نفس علامات الرضا. ما إن انتهى الوالد حتى نهض الطفل متوجها نحو المنصة. نهره والده، لكن المسيّر قال مازحا: "اتركه، لعله يريد أن يدلي بشهادته، أليس ابن أعز أصدقاء رئيسنا ؟"

اعتلى الطفل المنصة. أخذ الميكرفون، و انطلق صائحا في وجه المحتفى به: "إني أكرهك، أكرهك ! أنت من حرمني من أمي..."

بسرعة البرق، رفع الأب ابنه وطار به خارج القاعة.

أحس المحتفى به بجسده الضخم يتضاءل وينزلق أسفل المنصة. بحثت عنه العيون فلم تجد له أثرا. صاحت امرأة كانت تجلس قرب الباب :

"يا إلهي! فأر مر بين قدميّ !"

التمثـــال

منذ سنوات، و هو يدّرس في المعهد العالي للمسرح.
لأول مرة، وجد حلمه يتحقق في العثور على تلك الموهبة النادرة. راح يصقلها بما أوتي من قدرة و كفاءة و صبر... راح ينحت التمثال كما تخيله إلى أن اكتمل وصار تحفة مبهرة.

وقع في حب التمثال لدرجة الخوف عليه من نسمة الهواء العليل.
صنع له قفصا بلّوريا يحميه من غبار النهار ورطوبة الليل.

استيقظ ذات صباح، ليجد التمثال قد أنبت جناحين طويلين.
اقتنع أن التمثال طائر لا محالة. أراد تحطيمه، لكن الحلم أمسك ذراعه بكل قوة. و بدل أن يحطم التمثال، حطم صانعه.

ألبـــوم

اتخذت قرارها.

هـذا اليوم، آخر يوم يجمعهما هذا السقف اللعين الذي ودعتها السعادة يوم احتمت به.

وهي تخرج أشياءها الحميمة لوضعها في الحقيبة، سقط أَلْبُومٌ أمـام قدميـها. تنـاثرت بعض صـوره. انحنت تلتقطهـا، فـإذا بالسعادة تطل منها! سألتها مستغربة :

"هل كنتِ هنا، طيلة هذه السنين"؟"

حركت السعادة رأسها بهدوء و هي تنظر إليها نظرة تواطؤ.

أحـست بـروحهـا تسلخ جلـد اللحظـة الآنيـة وتلبس جلـد اللحظات الهاربة...

بيـــات

أسكرها عطره الفـواح. احتضنته وغفت في دفء رحمه.

مـر دهـر.

عنـدما فتحت عينيهـا لم تتعـرف علـى الرحـم الـذي تتكـوم داخله ولا على الرائحة التي تزكم أنفها.

راحت عيناها القلقتـان تبحثان عنه بلهفـة. اصطدمتـا بقناعـه المتآكل مرميا فوق مزبلة السنين.

الراقـد

كلما حملت، يخرج الجنين طفلة رائعة الجمال. لكن العشيرة، لا تـعترف بـهـذا المولـود. عـليـه أن يـكـون أداة حـادة تحرث الأرض وتقوي الجذور، لا إناء مقعرا يزرع فيه الآخرون بذورهم.

كـان الصـراع بداخلهـا على أشـده ، عندما أحسـت فجـأة ، بـحـركـة غـريـبـة في بـطـنـهـا. تـذكـرت حـملها الأول وهي في العاشرة من عمرها، من ذلك الجني الذي صادفته ذات خلوة، في جزيرة الواقواق.

"يا إلهي، أيعقل أن يظل ذلك الجنين "راقـدا" كل هـذا الوقـت"؟ هزهـا الحنين إلى حبهـا الأول. صارت تختلي بجنينها. تـكلمه. تداعبه. تغريه بالخروج من الكهف لترى من خلاله صورة المحبوب.

عندما خرج، لم يكن يحمل أية علامة جنسية. لا ذكرا ولا أنثى. لا جنيا و لا إنسيا. و كلما صادف أحدا في طريقه، عانقه عناق الابن لأبيه.

الدهشة

كانت الدهشة رفيقته...

كانت المشعل الذي ينير له طريق المعنى والجدوى. كانت تجعل العالم يتحول باستمرار، إلى غابة من الأشجار الوارفة الظلال، المتفتحة الأزهار.

ذات يوم، غابت الدهشة، فإذا الشمس تغرب والكون يظلم وأوراق الأشجار الخضراء تذبل في عز الربيع!

ذوق

ملّ عالم المومسات الذي أدمنه زمنا طويلا.

أراد أن يتزوج امرأةً صالحة. أصبح يواظب على مراقبة الفتيات المارات أمام المقهى.

أخيرا، عثر على ضالته. تبعها في تهيب، و قد قرر الكشف عن نيتـه. ما إن أصبح محـاذيا لها، حتى بادرته هامسـة :

"لا أتجاوز ربع ساعة. والدفع مسبقا. هات المبلغ بسرعة، واتبعني عن بعد."

مظاهر

دخلت امرأتان المتجر ذا الواجهة الزجاجية الفخمة. الأولى أنيقة أناقة مثيرة، والثانية عكسها تماما. غمز صاحب المتجر لأحد العاملين مشيرا برأسه إلى الثانية.

ظلت نظرات العامل مشدودة إليها تترصد حركاتها ترصد القط للفأر.

ظلت المرأة الأولى تنتقل بين صفوف البضائع النفيسة بكل حرية.

أحست المرأة الثانية بالنظرات تخترقها وتستفز الدم في عروقها، لكنها كتمت غيظها.

فجأة، حانت منها التفاتة، فإذا بها ترى المرأةَ الأولى تدس شيئا ما في حقيبتها. التقت عيناهما للحظة. بدا الارتباك على الأولى. ابتسمت لها الثانية ثم واصلت تبضعها في سكينة وقد غمرتها نشوة الانتقام.

طفـولة

أحس بالذنب. ما الذي يجعل قلبه لا يطير كالفراشة في اتجاه تلك الطفلة التي تنط فوق حجر أمها الجالسة في المقعد المجاور؟ بل لماذا يشعر بالنفور بدل الحب ؟

لعـل الأجـواء الخانقة لهذه الحافلة المكتظة هي السبب؟ أو لعله البؤس المخيم على ركابها ؟

عــاد يتــأمل وجــه الطفلــة. ملامحهــا حــادة ونـظـراتها قــاسية. استدارت الأم نـحوه، وكأن إحساس الأمومة أوعز إليها بوجود عيون شريرة تتربص بفلذة كبدها.

يا للمفاجأة ! نفس الوجه ولكن بحجم أكبر قليلا ! الجلـد فوق العظم. العينان غائرتان. الملامح حادة. النظرات قاسية تخترق أحشاءه اختراق السيف القاطع !

فطـــام

صعقها ذات غروب، إذ أخبرها بموت الحب في عز عنفوانه.

لم تُرد أن تمرغ كرامتها في وحل السؤال.

كـان الفطـام مفاجئا كحـركة غـدر، حـادا كضربة سيف، مـؤلما كالفقـدان.

طال الألم. طالت حرقة السؤال.

وجـــاء ذلـك اليــوم الـذي انتظـرتـه. وجـاءهـا يخطـــب ود الـزمن الضائع.

آنـذاك فقـط، فَقَـدَ السـؤال، ألـق الإغـراء وَخَـبَـتْ نـارُه المتقدة.
آنذاك فقط، راحت المفطومة الصغيرة تلهو بعيدا، عازفة عن ذلك الثدي، وكأنها لم تحن إليه زمنا طويلاً.

النـــادل

تحول فضاء الفيلا الفخمة إلى حديقة تفوح منها روائح أغلى العطور وتينع فيها أجساد أجمل النساء.

كان الحفل في أوجه. إيقاع الموسيقى يـزداد ارتفـاعا والأجسـاد حرارة وعريا. عندما توقف النادل الشاب، ذو البذلة الرسمية الأنيقـة عند إحـدى المـوائد، كـانت صاحبة الجسـد الممتلـئ والصـدر شبه العـاري تحكي نـكتة ماجنة. استمرت في الحكي بعـدما سحبت نفسـا عميقـا من سيجـارتها الفخمـة ونفخـت الدخـان الذي ارتطم بوجهه و هو ينحني ليقدم لها الشاي...

تـابع النـادل طريقه إلى المائدة المجاورة. قالت إحدى الحاضرات وهي تـكاد تنفجر من الضحك:

- ألم تخجلي وأنت تحكين النكتة أمام الرجل؟

أجابت وهي تنظر حولها في استغراب :

- أي رجل؟!

مشهد

أحست بأنفاسها تختنق. ما تشاهده على الشاشة من إبادة همجية ومن صمت رهيب لذوي القربى لا يطاق. لم تشعر إلا وهي تصيح:

أين الرجال؟ أين الرجال؟

في حركة آلية للتشبث بالحياة، هرعت إلى الشرفة للتزود بقليل من الهواء.

المقهى المواجه للعمارة غاص بالذكور. أثارها مشهد الرؤوس السوداء وهي مائلة في اتجاه واحد.

بدت الصورة كحقل عباد الشمس ساعة الغروب.

اتجه بصرها حيث الأعناق ممدودة والأبصار مشدودة. امرأة بمؤخرة بارزة تكاد تغيب وراء المنعطف. غابت المؤخرة، فعادت الرؤوس تميل في اتجاه واحد.

بدا المشهد هذه المرة، كحقل عباد الشمس ساعة العصر.

اتجه بصرها حيث الرؤوس متجهة. تعكس الشاشة المعلقة صورة مطربة شابة في عرض ساخن جدا...

الحـــظ

تخـرجا معا بتفوق. اتفقـا على فتـح عيـادة مشتركة. رصعـا اليافطـة النحاسية التي علقت على باب العمارة باسميهما معا. اسم مقابل اسم وأسفلهما التخصص: "أمراض النساء".

ابتسم لهما الحظ في البداية، نفس الابتسامة.

مع مرور الزمن، حافظ على ابتسامته العريضة في وجه الأول، بينما بدأت ابتسامته تتقلص في وجه الثاني... إلى أن جاء اليوم الذي أصبح فيه يعانق الأول عناقا حارا بينما يبصق بقوة، في وجه الثاني.

وصلـــة

الجدة قابعة في ركنها المعتاد، تتابع الصور المتعاقبة على الشاشة. أطربها لحن الوصلة الإشهارية. أصاخت السمع لالتقاط الكلمات :

"أفرحي آنا... أسعدي آنا..."

أعادتها الكلمات إلى زمنها الجميل. استعادت لحظات السعادة التي كانت تردد فيها هذه العبارة. يوم فاجأها ابنها بمفتاح شقة جديدة تعويضا لها عن سنوات الحرمان والتضحية... يوم أخبرها بعزمه الزواج من رفيقته في العمل... يوم استجاب لرغبتها في أداء فريضة الحج...

عادت تصيخ السمع للمرأة التي تواصل أداء الوصلة.

"خـدّمت وليدي... سكّنت وليدي... زوّجت وليدي... ما بقات لومة عليّ."

أحست بالسعادة التي غمرتها قبل قليل، تنسحب بسرعة البرق من أعماقها لتستوطنها الغربة من جديد. التفتت إلى حفيدتها العانس قائلة:

"الآن فقط، فهمت لماذا انعدم الرجال.»

الخــوف

توصل الطفل أخيرا، إلى طريقة ينهي بها عذابه. لم يعد قادرا على تحمل الإهانة الدائمة والحرمان من اللعب مع أقرانه. ما إن يراه ذلك الوحش الذي يكبره حتى يرتمي بجثته الضخمة على جسده الهزيل.

حلق شعر رأسه الغزير. ابتسم وهو يرى رأسه يتحول إلى حجارة للتيمم. انتعل الحذاء الرياضي وخرج.

تقدم بخطى ثابتة، في اتجاه الوحش رافعا رأسه، محدقا في عينيه. ما إن اقترب منه، حتى باغته بضربة من رأسه المكور على جبهته وانطلق كالسهم.

استدار ليقيس المسافة التي تفصل بينهما، كان الوحش يجري في الاتجاه الآخر !

واصل الطفل الجري ولكن هذه المرة، في الاتجاه المعاكس.

مايسترو

اصطحب معه حلمه وهو ذاهب إلى الاجتماع. الوحدة خير من التشرذم.

امتلأت القاعة الكبيرة عن آخرها. اصطف مناضلو الحزب "الأب" إلى جانب مناضلي الأحزاب "العاقة" التي خرجت ذات يوم، من جلبابه.

تبدو الصورة مشرقة ومنسجمة.

ما إن تناول رئيس الحزب "الأب" الكلمة حتى وقف شخص طويل عريض أشيب الشعر إلى جانب المنصة. بمجرد ما ينهي الرئيس جملة من جمله المرصوصة، حتى يرفع الشخص يده مثلما يرفع المايسطرو عصاه، داعيا الجمع الغفير إلى ترديد الشعارات وراءه.

نفس الشعارات التي كانت تثير قرفه ذات زمن بعيد. المايسترو يقاطع الرئيس والجماهير تردد شعارات المايسترو وحلقة "القرد و مُلاعبه" تتسع تحت حرارة التصفيق لتقذف به و بحلمه خارج الإطار.

مــــوت

ظل يلهث وراء الحلم المستعصي :

الرضى المطلق عن الذات.

ما إن أمسك بتلابيبه... حتى سقط جثة هامدة.

رقـــص

كنت أسير في الشارع الطويل، مشدود الخطوات إلى الأرض.

رأيتها تمرق أمامي بخطوات راقصة... متطايرة ... محلقة.

أســـرعت لألتحق بها. بالكـاد أمسكـت بجنـاح ابتسامـتها المشرعة للريح.

ألقيت نظرة على بئرها العميق.

كان الحزن قابعاً هناك، يعزف على أوتار الجراح النازفة.

امتد لهيب السيل الأحمر يحرق قدمي، فإذا بخطواتي تنطلق راقصة... متطايرة... محلقة.

عقــاب

كانا يلهوان فوق الشاطئ.

هي تقترب وهو يبتعد والبحر يراقبهما عن كثب.

مل البـحـر متـابـعـة الـلـعـبـة العبثية، فانـتفض طامسا المسافة بينهما، قاذفا بـكل واحـد إلى جزيـرة من جزره النائية.

ذات مد، انقشعت المسافة، فإذا به يقترب و هي تبتعد والبحر يراقبهما عن كثب.

لم يمل البحر هذه المرة، متابعة اللعبة العبثية. لم ينتفض طامسا المســافـة بيـنهـمــا. لم يقـذف بـكـل منهـمـا في جـزيـرة مـن جـزره النائية...

و إنما ظل يراقب سيزيف، متلذذا بعقوبته الأزلية.

تربية

كان صوته يجلجل مغطيا كل الأصوات. يردد الشعارات المعادية للسياسة الأمريكية والداعية إلى مقاطعة بضائعها. يندفع نحو الصفوف الأمامية غير مبال بحرارة الشمس الحارقة ولا بثقل ابنه الصغير فوق كتفيه. وكيف يشعر بثقله وهو يريد أن يربيه على النضال و مقاوم أشكال الظلم؟

تفرقت المظاهرة. اتجه مباشرة إلى المقهى. طلب زجاجة كوكاكولا مثلجة وألقى بظهره إلى الكرسي مزهوا بنفسه.

استفاق على طعنة تخترق قلبه الذي لم تهدأ سرعة نبضاته بعد.

"بابا، هل نسيت أن كوكاكولا أمريكية؟! ..."

انتقام

كانت قسوة الأم لا تطاق. لم يجد الطفل جوابا شافيا لتساؤلاته. لم يجد وسيلة للانتقام.

ذات يوم، لم يتمالك نفسه، فبال في الفراش. ما إن رأت الأم فعلته حتى راحت تلطم وجهها وتَنْتِفُ شعرها وقد جحظت عيناها حتى كادتا تغادران محجريهما.

أحس بسعادة عارمة لم يشعر بها من قبل.

أخيرا، اهتدى إلى طريق الانتقام!...

حلــم

لا تــزال ذكرى ذلك الزمن الجميل تستوطن أعماق كل منهما.
منذ أن تـفرقت بهمـا السبل وكـل منهمـا يبـحث في وجــوه العابرين عن وجه الآخر...

المطر يهطل بغزارة هذا المساء.

الزقـاق المظلم خـال من المـارة ما عـدا رجـلا يحتمي بقبعتـه الشتوية و امرأة بمظريتها، يسرعان في اتجاهين متعاكسين.

اصطـدم أحـدهما بالآخــر... همهم كل منهما كلمـة اعتـذار دون أن يتوقف أو يلتفت...

جرف سيل المطر حلم كل منهما.

قتــل

منذ الليلة الأولى، اشتدت المنافسة بينهما على من ينجح في "قتل القط" قبل الآخر.

كان الحب يراقبهما باستغراب.

في خضم تتبعهما لحركات القط الزئبقية، فوجئا بيديهما تخططانه وتهويان معا على رأس الحب.

نجا القط وسقط الحب جثة هامدة!...

حشـــوة

وضعت رأسها فوق المخدة الناصعة البياض واستسلمت طواعية للنوم.

استيقظت على الدجاج ينقر رأسها حد الجرح.

لم تكن المخدة محشوة بالقطن كما توهمت.

كانت محشوة بالنخالة.

نتيجة

اشمأز المتجمهرون من تصرف الابن تجاه أمه العجوز.

"مسخوط الوالدين والعياذ بالله !" رددوا جميعا.

ظل الشيخ الحكيم يتأمل المشهد في صمت. ثم التفت إليهم قائلا:

"لا تنظروا إلى اليوم، انظروا إلى الأمس !"

لغة الطير

جلس الصبي المتشرد غير بعيد عن باب المطعم الذي رفض صاحبه تشغيله فيه، متأملا وضعه البئيس.

"لا أحد محتاج إلي، فما جدوى البقاء؟" قال محدثا نفسه.

كان وهو يفكر، يفتت قطعة خبز بين يديه.

أثار اهتمامه طائر حط أمامه و طار بسرعة فائقة.

تابعت نظراته الطائر الذي غاب داخل الأغصان الكثيفة للشجرة المقابلة.

فوجئ بسرب من الطيور يخرج منها متجها نحوه. التهمت الطيور في رمشة عين، كل الفتات تاركة المكان نظيفا... انفتحت مغاليق لغة الطير أمامه، راسمة ابتسامة عريضة على محياه.

شيخوخة قلب

القلق يكاد يقتلها. أي مكروه يكون قد أصابه ؟

تحولت أذناها إلى رادار يلتقط أدق الذبذبات في الشارع الذي يغمره السكون و الظلام.

أخيرا، سمعت وقع قدميه على السلم. أسرعت تفتح الباب بهدوء. رفرف قلبها إذ رأته سالما.

صاح متلعثما :

- ألا تكفين عن غيرتك العمياء و تجسسك علي ؟

انكمش قلبها. شاخ في الحين.

في الليلة الموالية، ما إن أوت إلى فراشها، حتى راحت تغط في نوم ثقيل.

نداء الحب

قالت: (بلهجة حادة) لا أفهمك ! هل هناك من يتخلى عن أمه ليبحث عن أم غريبة تتبناه ؟

قال : وهل الأمومة إنجاب وحسب ؟ أليست حبا وحنانا ؟ رعاية و اهتماما ؟

قالت: ألست من بيضها تكونت ؟ و في رحمها ترعرعت ؟ و على ملامحها تفتحت ؟

قال: و إذا كان قطع الحبل السري آخر عهدي بها و لم يتبق في ذاكرتي من ملامحها سوى القسوة، ألا يحق لي أن أهيم حبا بتلك التي تمد لي يدها عبر البحار و المحيطات ؟

ألا تعتقدين أن نداء الحب أقوى من كل نداء ؟

التوأم

لم تكن تنفصل عن توأمها.

ذات يوم، ضاقت برفقته. لاح لها شبح بهيئة قلم. أغرتها جاذبيته. انساقت لإغرائه. انفصلت عن توأمها و رافقته.

و هما يسيران جنبا إلى جنب، وجدته يتحول إلى عراف !

مدت صفحة يدها. قرأ الصفحة... كشف ما لم يخطر لها على بال.

توأمها لم يكن توأمها. كانت بيضاء. كان أسود. قال العراف:

لا تحزني ! لكل منا توأم مختلف !

الطريق

الطريق ممتد أمامهم.

بعضهم يسير وسطه. بعضهم على حافتيه.

هبت ريـاح عاصفـة، فـإذا بالسائرين على الأطـراف القصـوى يتطاير ون في تبادل غريب للمواقع.

أمّا أصحـاب الوسط ، فـظلـوا يواصلـون السـير بخطـى ثابتـة وكـأن تعاويذ سحريـة تقيهم غضب تلك الرياح.

تلــــوّن

ما إن دخـلتُ المكتب، حتى سمعت صوتا يرحب بي بحـرارة ! لم أتبين مـلامـح المـرأة التي لا يظهـر من وجهـهـا غير جـزئـه السفلي. قامت تعانقني قائلـة بلهجة معـاتبة: ألم تعرفيني؟

بعـد لأي، أدركـت أنهـا زميلتي التي عملـت معي قبـل سـت سنـوات، في مصلحة أخرى. ما الذي غيرها إلى هذا الحد؟

تبـدو امرأة مختلفـة تمامـا، بلباسهـا الفضفـاض غير المتنـاسـق، وبالسبـحة التي تمـرر حبـاتها بين أصابعها بحـركة متوترة. كـانت مضرب المثـل في الأناقة الباريسيـة ومحط الإعجـاب أو الحسد بسيارتها الفخمة وقصرها الشامخ.

ما فاجأني أكثر، وجود ركام من الجرائد أمامها. لم تـكن تطيـق من يقرأ حرفـا.

لم تطـل دهشتي. كل الجـرائـد تتـابع على صفحـاتها الأولى، تطـور قضية مـن أخطـر قضايـا اختلاس المال العام.

تمرد جسد

عندما صادفت عطلتي السنوية شهر رمضان، فرحت.

أخيرا، سأستمتع بالجلابيب التي أحبها وقد تحررت من حركتي الدؤوبة أثناء العمل.

كانت العلاقة قد توطدت بين جسدي وجلابيبي عندما طلبني مدير الشركة لأمر هام.

وأنا في الطريق، نهرني شاب قائلا:

"إنه رمضان، فأين الجلباب؟"

بعد ذلك، عندما أردت ارتداء الجلباب، وجدت جسدي يمتنع عن الدخول فيه. استغربت. هل ازداد وزني لهذه الدرجة وبهذه السرعة؟

حاولت مع الجلباب الثاني... والثالث...

لكن جسدي أعلن تمرده المطلق!

ما أسعدك !

قال الكوخ للقصر: ما أسعدك !.. ما أجملك في شساعتك وعلوك!

رد القصر: بل ما أسعدك !.. تواضعك ودفؤك يمنع العواصف والرياح أن تطولك !

قالت البدينة للنحيفة: ما أسعدك !... غصن بانك يزرع الفتنة في خطاك !

ردت النحيفة: بل ما أسعدك !... أينما حللت شُدَّت الأنظار إليك.

قالت الموظفة لربة البيت: ما أسعدك !... تستمتعين بوقتك وبيتك وأسرتك.

ردت ربة البيت: بل ما أسعدك !... تستمتعين بكامل حريتك وتألقك!

تعالت الأصوات من كل الجهات : ما أسعدك !... بل ما أسعدك ! ما أسعدك ! بل ما أسعدك!...

انفجر الجنون ضاحكا. خرج العقل من حالة تأمله. نظر إليه مليا، ثم قال :

ما أسعدك !... لا أحد يدرك هذا العالم غيرك !

عجينة

اختار قالبا مزخرفا ليضعها فيه طيلة الليل، حتى تتخذ شكله.

لكن، ما إن طلعت شمس النهار وتسرب شعاع عبر كوة السقف، حتى امتطته.

أطل يطمئن على عجينته، فإذا... لا أثر لها!

حالــة

اجتاحته حالة "الدويندي" وهو يلقي خطابه على الجمهور.
أغمض عينيه متلذذا بجهورية صوته وفصاحة لسانه.

أيقظه هدير التصفيق.

فتح عينيه.

لا أحد في القاعة.

الديناصور(*)

استيقظ الديناصور. رآه جاثيا كالعادة...

تثاءب، وعاد إلى سباته.

(*) من وحي قصة "الديناصور" للكاتب أوغوستو مونتروسو.

الفهرس

صدر للكاتبة :

- **أنين الماء**، قصص، منشورات مجموعة البحث في القصة القصيرة بالمغرب، دار القرويين/ الدار البيضاء، 2003
- **تمارين في التسامح**، لعبد اللطيف اللعبي، المركز الثقافي العربي، 2005
- **قاضي الظل**، لعبد اللطيف اللعبي، المركز الثقافي العربي، 2005
- **امرأة ليس إلا...** ، لباهية طرابلسي، المركز الثقافي العربي، 2005
- **نجمة الصباح**، قصص، المركز الثقافي العربي، 2006
- **نساء في الصمت**، لنفيسة السباعي، المركز الثقافي العربي، 2006

- أخاديد الأسوار، رواية، المركز الثقافي العربي / الدار العربية للعلوم، 2007
- عقدة دي، للكاتب الصيني داي سيجي، المركز الثقافي العربي، 2008
- نهر سيشوان، قصص من الصين، منشورات ديدالوس، تونس 2008



□ حاصلة على الجائزة الأولى لمجلة «ثقافة بلا حدود» بسوريا في القصة القصيرة جدا 2007



يومض البرق،

فيشق نوره جليد السواد.

عندئذ، يتكشف عمق الظلام.

يدق الرعد طبول الحرب،

فتتجمع جحافل الأمطار.

الثمن: 30 درهما